مهمة نقد الشعر عند قدامة لاصلة لها بعروضه او اوزانه او لغته . فهذه ليست من جوهر الشعر في شيء . ولا تساعد على الكشف عن الشعر بصفته شعراً . فالحديث في اللغة والغريب والمعاني محتاج اليه في الشعر كما في النثر . وليس احدهما اولى به من الاخر . واما علم العروض والقافية فمع انها مما يخص الشعر دون النثر . الا ان معرفتها والعلم بها ليس ضرورياً . فقد كان الشعراء يقولون الشعر قبل ان يعرف علم العروض والقافية . وكان مدار الامر عندهم على الذوق والاذن المرهفة التي تستطيع ان تدرك الزحاف والعلل من دون معرفة سابقة بها . وكأني بقدامة يرد في هذا الذي قاله على ماكان يجري عليه النقد في عصره او قبله . اذ لاحظ ان النقد اتجه الى اللغة يزنها بميزان الخطأ والصواب والى المعاني يقومها على نحو جزئي لايرتبط بما قبله وما بعده . وصار ـ عند هؤلاء ـ الحكم على اللفظه او العبارة او المعنى حكماً على الشعر وليس ذلك بشيء . فالنقد ـ عند قدامة ـ تمييز الجيد من الرديء . ومعرفة هذا تحتاج الى علم دقيق بطبيعة الشعر اولاً . وقد رأى الناس يخبطون فيه . ولذلك . فبعد ان حدد قدامة مهمة نقد الشعر على النحو الذي اسلفنا القول فيه . بدأ بتحديد الشعر فقال ((انه قول موزون مقفى يدل على معنى))(٩) فالشعر بصفته (قولاً) يميزه من الذي ليس بقول . وكونه (موزوناً) يفصله عما ليس بموزون . وقوله (مقفى) يميزه من الاقوال الموزونة غير المقفاة . وقوله (يدل على معنىً) يميز القول الموزون المقفى ذا المعنى من مثيله مما لا يدل على معنى .

وهذا تعريف جامع مانع كما يقول المناطقة . فقد بدأوا بالجنس (العام) وهو القول . ثم بدأ يخصه بالوزن (الفصل) فاخرج من الاقاويل ماليس موزوناً . ثم خصه بالقافية فاخرج من الكلام الموزون ماليس مقفى ثم خصه بدلالة المعنى فاخرج من الكلام الموزون المقفى من مثيله الذي لامعنى له ومع ذلك فالتعريف يخلو من اية اشارة الى الخيال والصورة . وهما مما لايخلو شعر منهما . فالتعريف الذي ارتضاه قدامة لنفسه ينصرف الى النظم اكثر مما ينصرف الى الشعر . وفرق كبير بين النظم الذي هو رصف للكلمات على وزن واحد وروى واحد كما هو حال المنظومات العلمية . وبين الشعر الذي هو تعبير عن الوجدان وتصوير للمشاعر . ويقول د . مصطفى الجوزو بهذا الصدد ان قدامة لم يكن يقصد بتعريفه هذا

---

(٩) المصدر السابق ١١ . يعد بعض الدارسين تعريف قدامة هذا اوضح تعريف . ولعله اقدمها . وقد نقل هذا التعريف عنه بالحرف الواحد كثيرون . منهم على سبيل المثال الحاتمي (ت ٣٨٨ هـ) واحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) والمرزوقي (٤٢١ هـ) وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) واسامة ابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) ابن الاثير (٦٣٧ هـ) انظر د . مصطفى الجوزو نظريات الشعر عند العرب (بيروت ١٩٨١) ١٩٨ وما بعدها .

المنظومات العلمية لانها لم تكن شائعة في عصره من ناحية ولانه حدد بمعاني الشعر ماجاء على المدح والهجاء والمراثي وغيرها . والشعر لايكون الا بهذه من ناحية اخرى(١٠) .

وميزه قدامة ـ على حال ـ انه صرف اهتمام النقد من الشاعر ـ كما كان الحال عند ابن سلام ـ الى الشعر(١١) . وهذا هو عين الصواب . وقد بدأ اتجاهه هذا منذ ان عرف الشعر . ومنذ ان ربط الشعر بالصناعة . اي المهارة التي قد تصل بالشيء الى اقصى مراتب الجودة . او قد تنزل به الى ادنى مراتب الرداءة ... وبينهما حالات وسطى . ويقول قدامة : ـ ((اذا كان الشعر جارياً على سبيل سائر الصناعات مقصوداً فيه وفي مايحاك ويؤلف منه الى غاية التجويد . وكان العاجز عن هذه الغاية من الشعراء انما هو من ضعفت صناعته)(١٢) .

المعاني في الشعر :

لعل ابرز مايلاحظ على قدامة في حديثه عن المعنى محاولته حصر المعاني الشعرية في اغراض . وتحديد هذه الاغراض على نحو يشي بتأثير يوناني .

فالدكتور بدوى طبانة يرى ان قدامة اول من حصر اغراض الشعر وتتبع معانيه . وانه في هذا متأثر بأرسطو(١٣) . في حين يرى الدكتور محمد غنيمي هلال ان لقدامة فضل الريادة في دراسة الاجناس الشعرية من حيث الموقف والبواعث النفسية وما يترتب على ذلك من تخير للمعاني وطرق للصياغة(١٤) .

والواقع ان قدامة كان يدرك صعوبة حصر المعاني. فهو يقول ((ولما كانت اقسام المعاني التي يحتاج فيها الى ان تكون على هذه الصفة (مواجهاً للغرض المقصود) مما لانهاية لعدده ولم يمكن ان يؤتى على تعديد جميع ذلك . ولا ان يبلغ آخره . رأيت ان اذكر منه صدراً ينبىء عن نفسه ويكون مثالاً لغيره . وعبرة لما لم

---

(١٠) نظريات الشعر عند العرب ١٩٨

(١١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٢٠٨

(١٢) نقد الشعر ١٢

(١٣) قدامة بن جعفر والنقد الادبي (القاهرة ١٩٥٨) ٣١٣

(١٤) النقد الادبي الحديث (القاهرة ١٩٦٩) ١٧٦

اذكره . وان اجعل ذلك في الاعلام من اغراض الشعراء . وما هم عليه اكثر حوماً . وعليه اشد روما . وهو المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف والتشبيه))(١٥) .

فحصر المعاني اذن في هذه الاغراض الستة بسبب ان الشعراء ـ او معظمهم ـ يدورون في اطارها . ولا يخرجون عنها الا فيما ندر . وليس في الامر حصر شامل للمعاني على نحو مايشير اليه الدارسون المعاصرون . واظن اننا يجب ان نميز بين حصر للاغراض الشعرية .. وحصر للمعاني الشعرية . فاما الاغراض الشعرية فقد حصرها قدامة فعلاً في الاغراض الستة المشار اليها سابقاً . وهو في هذا غير خارج عن المنهج العربي من تحديد اغراض الشعر . واما المعاني الشعرية فلعل المقصود بها المعاني الجزئية التي يجعلها الشاعر مدار حديثه عندما يمدح او يرثي او يهجو وقدامة في هذا الشآن حصر ـ مثلاً ـ معاني المديح بالفضائل النفسية الاربع كما سنرى . وكان متأثراً بأرسطوا الى حد ما(١٦) .

والناظر لاغراض الشعر الستة يراها تتوزع على امرين اثنين :

١ . الانسان ـ في المديح والهجاء والرثاء والنسيب .

٢ . الطبيعة ـ في التشبيه والوصف .

كما ينبغي لنا الاشارة الى ان التشبيه والوصف ليسا غرضين شعريين . فهما اسلوبان وطريقان في الوصف ورسم الاشياء . وهما موجودان في اغراض الشعر كلها . فمن النادر ان نجد قصيدة في غرض شعري معين تخلو من وصف او تشبيه . واذن فالانسان ـ كما يبدو ـ هو اساس المعاني الشعرية وقد يكون هذا ما اراده قدامة عندما قال ((اذ كان غرض الشعراء انما هو مدحهم (الرجال))(١٧) .

اغراض الشعر :

وبناء على ذلك فقد قدم الحديث في المدح على سائر الاغراض الاخرى . وهي ـ في واقع الحال ـ صور او مظاهر لحقيقة المدح او جوهره ... فالغزل ـ مثلاً ـ صورة من صور مدح المرأة . والرثاء صورة من صور مدح الميت(١٨) . اما

---

(١٥) نقد الشعر ٥١

(١٦) يعتقد د . بدوي طبانة ان تأثر قدامة بأرسطو لم يكن في مادة الحصر وانما في المنهج ... انظر قدامة بن جعفر والنقد الادبي ٣١٤ .

(١٧) نقد الشعر ٥٨

(١٨) والفكرة تعود الى يونس بن حبيب ، اذ قال التأبين مدح البيت . والمدح للحي وكذلك فعل ابن سلام في الطبقات .. ص ٥٠ .

الهجاء فهو نقيض المدح . فاذا كان المدح يقوم على اضفاء الصفات الايجابية على الممدوح . فالهجاء هو سلب لهذه الصفات .

اساس الشعر وجوهره المدح . ويقوم على الفضائل النفسية الاربع . يقول قدامة ((لما كانت فضائل الناس من حيث انهم ناس لامن طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان . على ماعليه اهل الالباب من الاتفاق في ذلك . انما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة . كان القاصد لمدح الرجال بهذه الاربع الخصال مصيباً . والمادح بغيرها خطأ))(١٩) .

ومن الدارسين من يتصور ان نظرة قدامة للشعر بصفته مدحاً وهجاء انعكاس لتأثر ارسطي . فهذا الاخير يرى ان اصل المعاني الشعرية يقوم على المأساة والملهاة ولك ان تسآل ماعلاقة المأساة والملهاة اليونانيتين بالمدح والهجاء العربيين فتقول لك ان العرب ـ والمترجمين بخاصة ـ عندما نقلوا (فن الشعر) لارسطو الى العربية لم يستطيعوا ان يتصوروا تماماً ما المقصود بالمأساة والملهاة . لانهم ـ بكل بساطة ـ لايعرفون التمثيل او المسرح . فقربوا ـ او لعلهم تصوروا ـ المأساة الى مفهوم المديح في العربية . لان خصائص بطل المأساة اقرب ما تكون الى خصائص الممدوح . وعدوا الملهاة هجاء للسبب نفسه ... فبطل الملهاة شخص مهزوز وهو الى عامة الناس اقرب . كما انه مصدر سخرية الجمهور واستهزائهم وهكذا ترجموا المأساة بشعر المدح والملهاة بشعر الهجاء .

يقول ارسطو في كتابه (فن الشعر) ..

(ولقد انقسم الشعر وفقا لطباع الشعراء .. فذوو النفوس النبيلة حاكوا الفعال النبيلة واعمال الفضلاء ذوو النفوس الخسيسه حاكوا فعال الادنياء فأنشأوا الاهاجي .. بينما انشأ الاخرون الاناشيد والمدائح(٢٠) ويقول في موضع اخر (والملهاة هي محاكاة الاراذل من الناس في الجانب الهزلي الذي هو قسم من القبيح)(٢١) ... وكان ابو بشر متي بن يونس يفهم ان شعر الملهاة والمأساة .. انما هو مدح وهجاء .. ويتحدث في ترجمته لنص ارسطو بهذا المعنى(٢٢) ووقع قدامة فيما وقع فيه المترجمون علما ان القول يتأثر قدامه بتقسيم ارسطو للمعاني الشعرية

---

(١٩) نقد الشعر ٥٩ وفي ص ١٠٢ يذكر ابن سلام (الحلم) بدلاً من (العدل) فضيلة رابعة

(٢٠) ص ١٣ ، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي

(٢١) السابق ١٦

(٢٢) السابق ٩٣ ومواضيع اخرى

الى مأساة (مدح) وملهاة (هجاء) لايقوم على دليل واضح متين . اذ لم لايكون قدامه في تقسيمه للمعاني الشعرية متأثرا بالواقع الشعري العربي ؟ فالشعر العربي يقوم اساسا على المدح والهجاء وهما الغرضان الاساسيان . وقد عكس النقد العربي هذه الحقيقة . فجعل الابداع في المدح معيارا للشاعر الناجح يليه الهجاء فالتشبيه ثم الفخر(٢٣) .

وبالطبع فأن أول ما يتبادر الى الذهن .... ما عوامل الجودة او ما الذي يجب ان يتوافر في الشعر لكي يبلغ مرتبة الجودة والكمال . وبمقدار خلو الشعر من الخصائص التي تجعل منه شعرا جيدا يقترب من مرتبة الوسط او يتدنى الى الرداءة .

لو عدنا الى تعريف قدامة لوجدنا انه يتكون من اربعة اركان ..

١ . اللفظ
٢ . المعنى
٣ . الوزن
٤ . القافية

ومع ان قدامة جعل (القافية)ركنا رابعا .. عاد فحط من قيمتها قياسا الى الاركان الثلاثة السابقة . قال عنها (انما هي لفظة مثل لفظ سائر البيت من الشعر ولها دلالة على معنى لذلك اللفظ ايضاً . والوزن شيء واقع على جميع الشعر الدال على المعنى »(٢٤) . ولذلك فقد جعل احد الدارسين اركان الشعر عند قدامة ثلاثة وليست اربعة(٢٥) لان « اللفظ والمعنى والوزن تأتلف فيحدث من ائتلاف بعضها مع بعض معان يتكلم فيها » وليس ذلك للقافية « ولم اجد للقافية مع واحد من سائر الاسباب الآخر ائتلافا »(٢٦)

ولكل عنصر ـ او ركن ـ من العناصر الاربعة مفردة نعوت (صفات) . ولها نعوت أخر تلحق بها عندما يأتلف كل عنصر مع غيره . تنشأ عن ذلك مركبات اربعة اخر على الوجه الآتي : ـ

---

(٢٣) انظر المرزباني . الموشح (القاهرة ١٩٦٥) ٢٧٣
(٢٤) المصدر السابق ١٩
(٢٥) نظريات الشعر عند العرب ١٩
(٢٦) نقد الشعر ١٩

ائتلاف اللفظ مع المعنى
ائتلاف اللفظ مع الوزن
ائتلاف المعنى مع الوزن
ائتلاف القافية مع المعنى

« وصارت اجناس الشعر ثمانية . وهي الاربعة المفردات البسائط التي يدل عليها وحده . والاربعة المؤلفات منها »(٢٧)

فاذا توافرت في النص الشعري نعوت (صفات الجودة) المفردات والمركبات جميعا . كان ذلك منتهى الجودة . واذا سلب النص الشعري هذه النعوت بما يناقضها كان النص في منتهى الرداءة وبين الجودة والرادءة حالات وسطى تتحدد بمقدار قرب النص او بعده عن عناصر الجودة .

نعوت المفردات وعيوبها :

نعت اللفظ ان يكون سمحا سهل المخارج .. عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة(٢٨) .

اما عيوبه فهي ان يكون « جاريا » على غير سبيل الاعراب واللغة .

ويرى قدامة ان اللغويين قد استقصوا هذا الباب . ومنه الحوشي والغريب ورأى ان من الاعراب من جاء ذلك في شعره لا عن تكلف وانما لعادته وسجيته . وبعض اصحاب التكلف يأتون من الغريب ماينفر منه الطبع . وينبو عنه السمع .

ومن عيوب اللفظ أيضا (المعاظلة) اي مداخلة الشيء في الشيء . يقال تعاظلت الجرادتان اذا ركبت احداهما الاخرى . وليس ذلك عنده غير الاستعارة الفاحشة .(٢٩)

ونعت الوزن ان يكون سهل العروض . ومن ملامح هذا ان يكون فيه الترصيع غير ان الترصيع لايحسن في كل موضع فقد يدل على تكلف(٣٠) .

---

(٢٧) السابق ٢٠
(٢٨) السابق ٢١
(٢٩) السابق ١٧٤
(٣٠) السابق ٢٨ ـ ٣٢

اما عيوب الوزن فهي الخروج عن العروض . ومنها (التخليع) وهو (ان يكون قبيح الوزن ، قد افرط في تزحيفه)(٣١) .

ونعت القوافي ان تكون عذبة الحرف سلسة المخرج . ومن محاسنها التصريع (وربما صرعوا ابياتا أُخر من القصيدة بعد البيت الاول . وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره)(٣٢) .

واظن ان قدامة عد التصريع نوعا من السجع داخل البيت . اذ قال (بنية الشعر انما هي التسجيع والتقفية . فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه كان ادخل له في باب الشعر واخرج له من مذهب النثر)(٣٣) .

وللقوافي عيوب كثيرة منها (التجميع) و (الاقواء) و (السناد) و (الايطاء) ومع ان قدامة يرى ان الحديث في هذه العيوب مكرر ، ولذلك لم يفصل القول فيها ، لانرى بأسا من الاشارة الى تعريف قدامة لها ..(٣٤)

١ . التجميع : وهو ان تكون قافية المصراع الاول من البيت الاول على روى متهيء لان تكون قافية اخر البيت فتأتي بخلافه .

٢ . الاقواء : وهو ان يختلف اعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة مثلا واخرى مخفوضة وهذا في شعر الاعراب كثير جدا . وقد ارتكب بعض فحول الشعراء الاقواء .

٣ . الايطاء : الايطاء : وهوان تتفق القافيتان في قصيدة فأن زادت على اثنين فهو اسمج . فأن اتفق اللفظ واختلف المعنى كل جائزا .
والايطاء من الموأطاة اي الموافقة .

٤ . السناد : وهو ان يختلف تصريف القافيتين . والسناد من قولهم خروج بنوفلان برأسين متساندين ، اي كل فريق منهم على حياله .
وهو مثال ماقالوا : كانت قريش يوم الفخار متساندين ، أي لايقودهم رجل واحد .

---

(٣١) المصدر السابق ١٧٨
(٣٢) المصدر السابق ٤٢
(٣٣) السابق ٥١
(٣٤) السابق ١٨١